الأصول التاريخية لحركة الحشاشين*

الدكتور/ محمد عثمان الخشت
أستاذ الدين المقارن والمذاهب الحديثة والمعاصرة
كلية الآداب – جامعة القاهرة

ترجع الأصول الأولى لحركة الحشاشين إلى التيار الشيعي في الإسلام – ذلك التيار الذي انقسم إلى فرقتين كبيرتين عند موت الإمام جعفر الصادق الإمام السادس سنة ١٤٨هـ، وقد كان الإمام جعفر قد عهد بالإمامة إلى ابنه الأكبر إسماعيل ولكن مات إسماعيل أثناء حياة أبيه جعفر الصادق، وهنا حدث الخلاف بين الشيعة : هل تنتقل الإمامة إلى محمد بن إسماعيل أم من حق الإمام جعفر الصادق أن ينقلها إلى ابن آخر من أبنائه هو موسى الكاظم ؟

ساقت مجموعة بقيادة ميمون القداح الإمامة إلى محمد بن إسماعيل وقالت ليس من حق الإمام جعفر نقل الإمامة إلى ولد آخر من أولاده ، في حين صرف الإمام جعفر الإمامة بالفعل إلى ابنه الآخر موسى الكاظم . فكان ذلك هو عقد ميلاد فرقتي الشيعة الرئيسيتين : الإسماعيلية ، والاثنا عشرية. فالاثنى عشرية هي التي أيدت إمامة موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية بقيادة ميمون القداح فقد ساقت الإمامة إلى محمد بن إسماعيل [1] ولما مات ميمون حوالي ١٩٨هـ ، خلفه ابنه عبد الله في الدعوة إلى أبناء إسماعيل . وكانت الحركة بعد موت إسماعيل قد دخلت في (دور الستر) ، وأخذت تنمو وتتوطد دعائمها الفكرية ، حيث عمل رجالها على تأليف المصنفات التي تنظّر لدعوتهم وتدعوا إليها ، وقد ظهرت في هذه الفترة الغامضة التي امتدت من موت إسماعيل حتى ظهور عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية ، مجموعة رسائل إخوان الصفا التي أشرف على تأليفها الإمام أحمد الأئمة المستورين.

وطوال فترة الستر التي تعاقب فيها ثلاثة من الأئمة المستورين، لم تحقق الدعوة نجاحاً كبيراً إلا بظهور عبيد الله المهدي، الذي يعتبر ظهوره أقصى ما وصلت إليه الدعوة الإسماعيلية من نجاح لا يقاس به إلا نجاح الدعوة الأولى في تصدع الخلافة الأموية .

ويرجع قسط غير قليل من هذا النجاح إلى الجهود الشخصية التي بذلها كبير الدعاة أو عبد الله الحسين الشيعي من أهل صنعاء اليمن . وهو الذي أعلن نفسه – في نهاية القرن الثالث الهجري – مبشراً بظهور المهدي ، وتمكن من غرس بذور الثورة بين قبائل البربر في شماله إفريقية ، وخاصة قبيلة كتامة . وترجع بداية معرفته بأفراد هذه القبيلة إلى موسم الحج في مكة، وكانت إفريقية في ذلك الوقت تحت حكم الأغلبية.

ثم انتقل أبو عبد الله إلى تَازَرُوت قرب بجاية في المغرب الأوسط في إقليم القبائل الحالي، واتخذها حصناً ومعسكراً يعد فيه القوة العسكرية اللازمة للقضاء على الدولة الأغلبية في إفريقية وإقامة دولة الفاطمية مكانها.وعندما سمع سعيد بهذا النجاح الباهر الذي حققه كبير دعاته في تلك المنطقة البعيدة ، عزم على أن يترك المقر الأصلي للإسماعيلية في سلمية ، وأن يسير متنكراً في ثياب تاجر إلى الشمال الغربي من إفريقية.

(١) ينفى معارضو الإسماعيلية تسلسل أى من الإئمة المستورين بين الإمام إسماعيل ويقولون : إنه لم يعقب ولداً وأن محمداً لم يكن ابنه وإنما هو (عبد الله) بن ميمون القداح الذي نسبه ميمون إلى إسماعيل وسماه محمداً. وهما ادعاءات أخرى متعددة غير ذلك. والواقع أن حسم هذه المسألة من الصعوبة بمكان إن لم يكن مستحيلاً لأن دخول الحركة فى تلك الفترة الغامضة المعروفة بـ [دور الستر] يجعل كل الاحتمالات ممكنة لا سيما وأن المؤرخين قد اختلفوا اختلافاً واسع النطاق حول هذه المسألة : ولكل منهم أدلتهم وبراهينه .

* إعداد/ هيئة التحرير نقلاً عن:
محمد عثمان الخشت، حركة الحشاشين:تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي.– القاهرة:مكتبة ابن سينا،١٩٨٨.

وعند وصوله أمر زيادة الله الأغلبي بالقبض عليه وسجنه في سجلماسة. ولكن أبا عبدالله الشيعي نجى سعيداً ، واستطاع في سنة (٢٩٧ هـ = ٩٠٩م) أن يحطم دولة الأغالبة التي ظلت تحكم زهاء قرن وأن يطرد آخر سلالتها زيادة الله من البلاد. وقد كان الأغالبة آخر من يمثل الإسلام السنى في شمالى إفريقية . ولقد أعلن سعيد نفسه حاكماً على تلك البلاد واتخذت لقب الإمام عبيد الله المهدي وقبله الناس على أساس أنه من سلالة فاطمة عن طريق الحسين ثم إسماعيل .

نسب الفاطميين :

ويشار غالباً إلى الأسرة الحاكمة التي أسسها سعيد باسم العبيدية، لا سيما من أولئك الذين لا يؤمنون بصحة نسبه. فمن المعروف أن المؤرخين يختلفون حول صحة تسلسل الفاطميين من فاطمة، ويوجد في كتب التاريخ ما لا يقل عن ثماني سلاسل نسب مختلفة يلحقه بها أنصاره وخصومه . ومما هو جدير بالذكر أن الخلاف على صحة نسب الفاطميين لم يقم إلا في سنة (٤٠٢هـ = ١٠١١م) عندما أصدر الخليفة العباسى القادر منشوراً غريباً أمضاه كثير من علماء أهل السنة وأعلن فيه ديصان الملحد . ومن بين المؤرخين الذين يتشككون في صحة نسب الإمام سعيد أو ينكرونها : ابن عذارى ، وابن تغرى بردى، وابن خلكان ، والسيوطى . أما الذين يؤيدون صحة نسبه فكثيرون ، منهم : ابن الأثير ، وابن خلدون ، والمقريزى .

عبيد الله كحاكم قوى:

مهما يكن من أمر فقد أقام عبيدالله نفسه نفسه أولاً في رقادة مقر الأغالبة وهى ضاحية من ضواحى القيروان. وقد أثبت أنه من أقوى الحكام ، فلم تمر سنتان على تمتعه بالسلطة حتى قتل كبير دعاته الحسين الشيعى ، ثم وجه جيوشه لفتح سائر بلاد المغرب، على أمل الخروج من المجال الضيق الذى وجد نفسه فيه ، وقد ساعده على ذلك ما كان تحت يديه من قبائل بربرية ضخمة متطلعة إلى الغازات والمغانم وفرض السلطان ، فإلى شرقى منازل كتامة – وكانت جذماً ضخماً يضم عدداً كبيراً من القبائل – كانت هناك قبائل صهاجة المغرب الأوسط ، وكانت أعدادهم أكبر من أعداد كتامة، فاصطنع عبيد الله المهدي واحداً من أكبر زعمائهم وهو مصالة بن حبوس ، وسلّطه على بقية المغرب الأوسط، وكانت تسكنه قبائل زناتية أكبرها مغراوة وبنو يفرن، فحمل الصنهاجيون عليها ودفعوها إلى الغرب، واستعانت القبائل الزناتية في محنتها ببنى أمية الأندلسيين ، ووصل مصالة بن حبوس تابع الفاطميين بمن معه من الصنهاجيين إلى المغرب الأوسط، وغلبوا الأدارسة ودخلوا فاس، وولى مصالة عليها رجلاً من أنصاره وهو موسى بن أبي العافية . وتقدمت أمداد الأمويين الأندلسيين لعون الأدارسة وبنى خزر الزناتيين، واشتعل المغرب كله ناراً نتيجة لتلك التوسعات الفاطمية .

من جهة أخرى ، فإن في سنة (٣٠٢هـ = ٩١٤م) استولت جيوش المهدي على الإسكندرية ، وبعد ذلك بعامين اكتسح كل الدلتا . ثم أرسل من قبيلة كتامة حاكماً جديداً إلى صقلية ، وكون علاقات صداقة مع الثائر ابن حفصون في الأندلس. وقد شعرت جزائر مالطة وسردينية وقروسيقة وجزائر البليار وغيرها من الجزائر بقوة أسطوله الذى ورثه عن الأغالبة . وفي حوالى (٣٠٩هـ = ٩٢٠م) اتخذ مقامه في غاصمته الجديدة "المهدية " التي أسسها على ساحل تونس على بعد ستة عشر ميلاً من الجنوب الشرقى للقيروان وأطلق عليها اسمه .

وخلال تلك الفترة أقامت الدولة الجديدة تنظيماً واسعاً للدعوة الشيعية الإسماعيلية ، فلم تجد دعوتهم صدى إيجابياً ؛ حيث نفر منهم أهل إفريقية نفوراً شديداً بسبب تمسكهم البالغ بالمذهب السنى المالكى يتزعمهم في ذلك فقاؤهم . ومنذ البداية اتضح لعبيد الله المهدي أن إفريقية لن تكون أبداً مهداً وثيراً لدولته الفاطمية الإسماعيلية ، وبدأت في أيامه المعركة الطويلة بين السنية المالكية والشيعية الإسماعيلية على أرض إفريقية ، وهى معركة طويلة وعنيفة، استمر المغرب يعانى منها طوال الفترة الفاطمية فيه .

خلفاء عبيد الله:

وقد اتبع أخلاف عبيد الله سياسة التوسع التي بدأها هو . فأما ابنه أبو القاسم محمد القائم المتوفي سنة (٣٣٤هـ = ٩٤٦م) فإنه أرسل أسطولاً يغزو السواحل الجنوبية لفرنسا، واستولى على جنوة ، وسار على طول ساحل قلورية يغزو ويحمل معه الأسرى

والغنائم ، ولكن هذه الحملات مع ذلك لم تؤد إلى غزو دائم. وبعد أن تغلب الفاطميون في أواخر خلافة ثالثهم أبي طاهر إسماعيل المنصور الذى حكم من وفاة القائم حتى سنة (٣٤١هـ = ٩٤٦م) على ثورة الخارجى أبي يزيد مخلد بن كيداد التي كادت تودى بدولتهم، بغد ذلك اتجهوا بأنظارهم إلى مصر، وقد شجعهم على ذلك ضعف الدولة الإخشيدية من ناحية ، والمتاعب والأزمات والتوترات التي كانت تواجههم في دول المغرب من ناحية أخرى.

ولكن قبل أن يركزوا جهودهم في السيطرة على مصر، وفي عهد الخليفة أبي تميم معد المعز ، استطاع الأسطول الفاطمى أن يغزو سواحل الأندلس التي كان خليفتها آنئذ الناصر العظيم . وبعد ذلك بفترة وجيزة تقدم الجيش الفاطمى ناحية الغرب حتى وصل إلى المحيط الأطلنطى الذى أرسل قائد الجيوش بعض أسماكه الحية في قدور للخليفة .

فتح مصر :

وبعد ذلك ركز الخليفة المعز لدين الله جهوده في محاولة السيطرة على مصر حتى تم له ذلك على يد قائده جوهر الصقلى. وكان جوهر الصقلى هذا ، ويلقب أيضاً الرومى، مسيحى النشأة ولد في مقاطعة بيزنطية لعلها صقلية، وبيع بعد ذلك في القيروان. وفي الحال بعد أن دخل جوهر العاصمة "الفسطاط " منتصراً في سنة ٣٨٥هـ ابتدأ يضع أساس المدينة العظيمة " القاهرة " التي سُميت كذلك نسبة إلى الكوكب السيار " قاهر الفلك " أى المريخ الذى كان إذ ذاك في صعود . وقد أصبحت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية سنة (٣٦٢هـ = ٩٧٣م)، وبعد تأسيس القاهرة أسس جوهر الصقلى الجامع " الأزهر " نسبة إلى الزهراء أحد ألقاب السيدة فاطمة بنت النبى ﷺ . وبذلك أصبح جوهر الصقلى – بعد أبي عبدالله الحسين الشيعى – المؤسس الثانى للإمبراطورية الفاطمية التي صارت الآن تضم كل شمالى إفريقية.

وعندما رأى الخليفة المعز لدين الله أقدام جيوشه بقيادة جوهر تتوطد في مصر عزم على نقل مقر خلافته إلى القاهرة . وقبل أن يغادر القيروان استخلف مكانه على المغرب بكلين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أكبر زعماء صنهاجة المغرب الأوسط. وقد بادر جوهر منذ دخوله مصر بإرسال أحد كبار قواده واسمع جعفر بن فلاح ، إلى بلاد الشام ، وقد وصل ذلك القائد في سنة (٣٥٩هـ = ٩٦٩م) إلى دمشق واحتلها احتلالاً مؤقتاً. أما غربى شبه الجزيرة العربية فقد ورثه الفاطميون عن الأخاشدة الذين كانوا يتولون أمر حراسة مكة والمدينة. وفي تلك الأثناء برز أمام الفاطميين عدو لدود هم القرامطة الذين كانوا يسيطرون على إقليم الإحساء وجزيرة البحرين، وقد كانت علاقاتهم مع الفاطميين في أول أمرهم علاقات صداقة، فلما أصبح الفاطميون خلفاء مصر انقلب عليهم القرامطة بسبب التصارع على مناطق النفوذ وتعارض المطامح.

عهد أبي منصور نزار العزيز بالله:

و لم يطل عمر المعزى لدين الله في مصر فقد توفي في سنة (٣٦٥هـ = ٩٧٥م) ، وكانت فترة حكمه لمصر سنتين وتسعة شهور هجرية ، أثبت فيها أنه من أقدر الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر إن لم يكن أقدرهم على الإطلاق. وتولى الحكم بعده أبو منصور نزار العزيز الذى وصلت الدولة الفاطمية في عهده إلى آوجها ؛ فكان اسم الخليفة يذكر في خطب الجمعة في جميع المساجد من المحيط الأطلنطى إلى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق ، بل في الموصل ذات مرة . ويمكن القول إن حكمه الاسمى – على الأقل – كان يمتد فوق هذه المساحة . وقد وصلت الخلافة المصرية في عهده إلى حد أنها أصبحت المنافس الخطير الأول للخلافة العباسية في بغداد . وذهب به التفكير إلى حد أنه أنشأ مبنى ضخماً في القاهرة كلفه ألفي ألف دينار ليأوى فيه منافسيه العباسيين الذين كان يأمل في القبض عليهم بعد الاستيلاء على بغداد . ولقد حذا حذو سابقيه فألقى نظرة طمع على بلاد الأندلس البعيدة ولكنه لم يستطع ضمها .

ويتميز عهد العزيز بالاهتمام الشديد ببناء كثير من المساجد والقصور والترع والجسور ، كما لاقى المسيحيون في ظل حكمه قسطاً من التسامح لم يظفروا بمثله من قبل، وذلك بتأثير وزيره المسيحى عيسى بن نسطور وزوجته أم ولده الحاكم التي كانت أختاً لبطريقين ملكانيين.

ورغم ازدهار الخلافة الفاطمية في عصره إلا أن أحد أسباب تدهورها فيما بعد كان هو المسئول عنه؛ ذلك لأنـه كـان أول خليفة فاطمة ابتدأ يتبع العادة العباسية التي كانت خطرة على سياسة الدولة، تلك العادة المتمثلة في استيراد الجند المرتزقة مـن التـرك والسودان . وكان عدم خضوع أولئك الجند ومشاجراتهم المستمرة بعضهم مع بعض أو مع الحرس البربرى من أكبر الأسـباب الـتي أدت إلى سقوط الدولة النهائى فيما بعد. وكان الجند الشراكسة والترك ومن معهم من العبيد هم . الذين اغتصـبوا في آخـر الأمـر السلطة التامة وأسسوا لهم دولة مستقلة .

عصر الأساطير والتنافس : الحاكم بأمر الله:

وبعد وفاة العزيز سنة (٣٨٦هـ = ٩٩٦م)، خلفه ابنه الحاكم بأمر الله وعمره إحدى عشرة سنة . وتشتمل فترة حكمه على متناقضات عجيبة : يأمر بالشئ ثم يعاقب عليه ، ويعلى مرتبة الوزير ثم يقتله ، ويبنى المدارس وينصب فيها الفقهاء ثم يهدمها ويقتـل فقهائها. وتتباين أقوال المقيمين له تبايناً عظيماً ، فمنهم من يتحدث عنه كعبقرى ، بل وكإله ! ومنهم من يعتبره مختل العقل مسـتهتراً سفاكاً للدماء.

وخلاصة الانطباع الذى يستطيع المرء أن يكونه بعد استقراء فترة حكمه والتأمل في أحداثها تتمثل في أن الحاكم كـان لغـز عصره، وتعد شخصيته مثالاً نموذجاً للخلفاء والغموض والتناقض ، ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التي تنتاب هـذه الشخصـية الغريبة في كثير من المواطن ، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية التي تتمتع بها في أحيان كثيرة . بيد أن الخلفاء والغموض يغمر هذه المظاهر جميعاً ، سواء في فترات قوتها أو ضعفها . وكان هذا الخفاء والغموض المروع يصب الحاكم في حياته الخاصـة وفي تصـرفاته العامة ، في أقواله وفي أفعاله . وأى خفاء وغموض أشد من ذلك الذى تنفثه حولها ، شخصية ترتفع في سماء التفكير حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم في دعوى الألوهية ، ومع ذلك تنحط في كثير من نزعاتها وتصرفاتها إلى نوع من الشذوذ بل الجنون الغامض ؟!

وقد انتهت فترة حكمه باختفائه في إحدى الليالى سنة (٤١١هـ = ١٠٢١م)، وتذكر بعض الروايات أنه وجد مقتولاً فـوق سفح المقطم ، ويقال : إن رجلاً اغتاله غيره لله وللإسلام بعد ادعائه للإلوهية وتنكيله بمصر وأهلها . لكن بعض المؤرخين يذكرون أنه اختفي نتيجة لمؤمرة دبرتها أخته ست الملوك التي اتهمها الحاكم في عرضها ، فدست له رجلين اغتالاه وأخفيا أثره . وأعلن أحد دعاتـه ويدعى حمزة أنه " احتجب وسيعود لنشر الإيمان بعد الغيبة " !!

الظاهر لإعزاز دين الله:

بعد رحيل الحاكم بأمر الله تولى الخلافة ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة (٤١١هـ) بعهد من أبيه الحاكم ، وكان في السادسة عشرة من عمره ، وكانت عمته " ست النصر " أخت الحاكم هى القائمة بأمور الدولة لصغر سنه ، واستمرت إلى أن توفيـت سـنة (٤١٥هـ) . وقد اضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية في عصره ، وتغلب حسان بن مفرح الطائى شـيخ عربـان جبـل نابلس على أكثر الشام . ودامت دولة الظاهر قرابة ستة عشر عاماً . وكان محباً للعدل ، فيه لين وسكون مع ميل إلى اللهو ؛ مما أعطى الفرصة لوزرائه أن تكون السلطة الحقيقية بأيديهم . وقد تمكن من إنشاء علاقات ودية مع قسطنطين الثامن ، واتفق معه على أن يذكر في المساجد الواقعة في ممتلكات الإمبراطور وأن يصلح مسجد القسطنطينية في نظير أن يسمح الظاهر بإعادة بناء كنيسة القيامة أو القبر المقدس.

عهد المستنصر:

وبوفاة الظاهر سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٦م) اعتلى به المستنصر العرش، وكان في الحادية عشرة من عمره، ويعتبر حكمه البـالغ زهاء ستين سنة أطول حكم حكمه خليفة في التاريخ الإسلامى ، وهو الخليفة الفاطمى الذى قابل فيما بعد الحسن الصباح مؤسـس حركة الحشاشين عند زيارته لمصر وأخذ عليه العهد والولاء له وكلفه بالدعاية الإسماعيلية في بلاد فارس، وعندما سأله الحسن : مـن إمامى بعدك؟ قال له المستنصر : ابنى نزار .. إلى آخر تلك التفاصيل التي سنذكرها في حينها عند الحديث عن نشأة حركة الحشاشـين وتطورها .

وفي الشطر الأول من حكم المستنصر كان يقوم بأمره وزير أبيه أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى . ثم تغلبت أمه على الدولة ، وهى أمة سودانية اشتريت من يهودي ، فكانت تتمتع هي ومن باعها بأعظم النفوذ ، وكانت تصطنع الوزراء وتوليهم ، ومن استوحشت منه أو عزت بقتله ، فيقتل.وفي عهده بدأت الممتلكات الفاطمية تتقلص ، وبعد سنة ١٠٤٣م ابتدأت الممتلكات الفاطمية التي كانت دائماً ضعيفة الارتباط بمصر تنفصل عن الدولة بسرعة ، وكانت فلسطين دائمة الثورات. ثم ظهرت قوة كبيرة في الشرق، تلك هي قوة التركمان السلاجقة الذين أخذوا يتطلعون إلى آسيا الغربية وقتئذ . وفي نفس الوقت كانت المقاطعات الإفريقية التابعة للفاطميين تنفصل وتمتنع عن دفع الجزية، وتعلن استقلالها أو تعترف بطاعتها القديمة للعباسيين.

أما القبائل العربية المشاغبة من بنى هلال وسليم ، التي كانت في الأصل من نجد وأصبحت آنئذ في الصعيد ، فقد حُرضت في سنة ١٠٥٢م على أن تتحرك إلى الغرب وتغزو لعدة سنوات متوالية طرابلس وتونس. أما صقلية التي كانت خاضعة للأغالبة ثم اعترفت بعد القضاء عليهم بنفوذ الفاطميين وخضعت لهم، فإنها في سنة ١٠٧١م قد أخضعها النرمنديون الذين لم يكتفوا بالاستيلاء عليها بل اكتسحوا بعض الأجزاء من إفريقية نفسها.

وبعد هذا التقلص السريع لنفوذ الفاطميين خارج مصر، لم يبق مخلصاً لقضية الشيعة إلا بلاد العرب وحركة ألموت (= حركة الحشاشين) في فارس بقيادة حسن الصباح. و لم يلمع في ذلك الأفق المظلم إلى شعاع واحد من الضوء، ذلك هو النجاح المؤقت الذى أصابه في بغداد القائد التركى والمغتصب المسمى البساسيرى، الذى أجبر الخليفة العباسى القائم على التنازل عن حقوقه في الخلافة لمنافسه الفاطمى المستنصر . وكان يذكر اسم المستنصر في المساجد الواقعة في منطقة نفوذه في بغداد مدة أربعين جمعة متتابعة . ولنا وقفة أخرى مع هذه الحادثة لنبين كيف استطاع القائد السلجوقى طغرل أن يعيد الأمور إلى نصابها .

الحالة الداخلية لمصر في عهد الفاطميين :

هذا عن الحالة الخارجية للدولة الفاطمية ، أما الحالة الداخلية في مصر نفسها ؛ فقد كانت المتاعب والقلاقل مستمرة بسبب النزاع بين فرق الأتراك والمغاربة والسودانيين مما أدى إلى شل سلطة الحكومة. ثم كانت سبع سنوات عجاف، فأرهقت الموارد الاقتصادية في البلاد . وفي سنة ١٠٧٢م أرسل الخليفة المستنصر المتردد القلق يستدعى بدراً الجمالى الأرمنى — الذى كان من الموالى السابقين ، وكان في ذلك الوقت الحاكم العسكرى لعكا — ليكون وزيراً وقائداً أعلى . وتولى أمير الجيوش الجديد الإمرة بما أوتى من قوة حتى أنه حول تلك الفوضى الظاهرة إلى نظام ، ومنح الدولة الفاطمية أمداً جديداً للحياة . ولكن أصبح الخليفة الفاطمى نفسه كالمحجور عليه بسبب ما كان يتمتع به بدر من قوة ونفوذ وسيطرة ، حتى أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً عندما اضطهد الوزير الداعية حسن الصباح عند وجوده في مصر.

ولكن هذا التجديد والإحياء لم يدم طويلاً ، و لم تفلح جهود بدر ولا جهود ابنه وخلفه الملك الأفضل في إيقاف تيار التدهور الآخذ في الأزدياد ، وكان الأفضل يمارس سلطة كاملة بعد وفاة أبيه. ولما مات المستنصر سنة (٤٨٧هـ = ١٠٩٤م) وضع الملك الأفضل على العرض أصغر أبناء الخليفة وسماه المستعلى بدلاً من نزار الابن الأكبر الذى كان له الحق الشرعى في الخلافة . ومن هنا انقسمت الاسماعيلية الفاطمية قسمان : الإسماعيلية المسعلية ، والإسماعيلية النزارية التي تنتمى إليها حركات ألموت .

وعند موت المستعلى نادى الأفضل بطفل للخليفة لا يتجاوز الخامسة من عمره، ومنحه - كخليفة — ذلك اللقب الضخم " الآمر بأحكام الله " الذى تمكن فدائى ألموت من اغتياله. ثم تولى الحافظ بعد الحكم من سنة ١١٣٠ إلى ١١٤٩م وكان سلطانه لا يعدو قصر الخلافة. أما ابنه وخلفه الظافر الذى حكم من ١١٤٩ إلى ١١٥٤م فإنه كان في ذلك الوقت شاباً مرحاً ، وانتقلت كل السلطة إلى يد الوزير الكردى ابن السلار الذى كان يلقب بالملك العادل. وتدل المذكرات التي تركها المؤرخ أسامة الذى عاش فيما بينستى ١١٤٤ و ١١٥٤م في البلاط الفاطمى — على أن المؤامرات والخصومات والتحاسد الذى كان قائماً لم يكن له نظير في أى بلاط آخر .

وليس من شك أن مقتل ابن السلار سنة (٥٤٨هـ = ١١٥٣م) على يد حفيد زوجته نصر بن عباس الذى شجعه الخليفة فيما عبد على أن يقتل أباه عباس بن السلار الذى خلفه في الوزارة ، وكذلك مقتل الظافر المصحوب بالغموض على يد ذلك المتآمر الصغير – كل ذلك يعرض أمامنا صفحة سوداء في تاريخ مصر السياسى . وفي اليوم التالى لمقتل الخليفة الفاطمى الظافر نادى العباس بابنه الذى كان لا يتجاوز الرابعة من عمره خليفة أعطاه لقب الفائز ، وقد مات هذا الخليفة الطفل وهو في الحادية عشرة من عمره ، تلاه سنة (٥٥٦هـ = ١١٦٠م) ابن عم له عمره تسع سنوات وهو الخليفة العاضد الرابع عشر من خلفاء هذه الدولة التي حكمت أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان.

وكان مما يزيد في تعاسة الشعب المصرى الذى كان يعتمد في حياته وإقامة أوده على فيضان النيل – تلك المجاعات والأوبئة المتكررة التي كانت تصيب البلاد الفترة بعد الأخرى ، وكان نتيجة ذلك ازدياد الضرائب على الشعب وتعرضه للاغتصاب حتى يشبع جشع الخلفاء وجهودهم. وقد زاد الأمور تعقيداً مجئ الصليبيين وهجمات أملريك ملك بيت المقدس الذى وصل إلى داخل البلاد حتى وقف سنة (٥٦٢هـ = ١١٧١م)، بجوار أبواب القاهرة نفسها .

إن كل الأمور قد وضع لها صلاح الدين حداً نهائياً بعزله لآخر خليفة فاطمى في (المحرم سنة ٥٦٧هـ = سبتمبر ١١٧١م)، وأسقط الخطبة على المنابر للخليفة الفاطمى وأقام الخطبة للخليفة العباسى على منبر الأزهر ثم بقية منابر مصر. وبذلك انتهت الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وبمجرد سقوطها زال كل أثر شيعى من الساحة المصرية على المستوى الفكرى والاجتماعى والدينى.

هل حققت الدعوة الإسماعيلية انتصارات عقائدية في عهد الفاطميين ؟

كان ذلك في افريقية ومصر حيث نجحت الحركة في تشييد دولتها ، وأخفقت في نشر فلسفتها وتعميم عقيدتها. ولا شك أن هذه مفارقة تلفت النظر وتدعو للتساؤل: لماذا فشلت الدعوة الإسماعيلية في تدعيم عقيدتها في تلك البلاد رغم نجاحها السياسي الذي لم تستطع أن تحققه من قبل ، لدرجة أن كل أثر فكرى من آثارها زال معها عند زوالها السياسي ؟

لماذا كانت العقيدة الإسماعيلية غائبة ، وفي لحظات الحضور كان حضورها حضوراً مغترباً ؟

لقد نجحت الحركة الإسماعيلية في تأسيس دولتها سنة ٢٩٦هـ بافريقية (=تونس) في مجتمع قبلي صحراوي وشبه صحراوي (سجلماسة – القيروان) سبق للإسلام أن " مسح الطاولة " فيه مسحاً ، مجتمع تبنى الإسلام السنى كما نشره " السلف " الفاتحون .

إذن كان من الطبيعي أن يقتصر الدعاة الإسماعيليون في نشاطهم الفكري الديني بافريقية والمغرب على " الظاهر " وأن يركزوا على الجانب السياسي التنظيمي باستثمار سخط السكان على الولاة والاعتماد على التحالفات القبلية . وإذا وضع المرء في اعتباره أن السلطة العباسية لم تكن مباشرة على هذه المنطقة ، إذ قامت هناك دولة الأغالبة ، وهى دولة صغيرة ضعيفة – تبين له أن نجاح الدعاة الإسماعيليين كان نجاحاً سياسياً بالدرجة الأولى ، وأن الدولة الإسماعيلية التي ستجسم هذا النجاح لم تختلف في وضعيتها الاجتماعية والسياسية والقانونية عن وضعية الدول الأخرى التي شهدتها المنطقة من قبل ؛ وبالتالي فإن الأيديولوجية الإسماعيلية بدت غائبة ، وفي لحظات الحضور كان حضورها حضوراً مغترباً .

وهذا لم يحدث فقط في إفريقية (= تونس) مهد الدولة الإسماعيلية ، بل إن نفس ما حدث أيضاً في مصر قاعدة حكمها ومركز حضارتها لمدة تزيد على قرنين من الزمان .. إنها لم تستطع أن تحول انتصارها السياسي إلى انتصار عقائدي ، لا في القيروان ولا في القاهرة.

ذلك رغم انتشار مدارس الدعوة التي أنشأها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة في عاصمته المهدية بتونس ، والتي انتقل منها حفيده المنصور إلى المنصورية بتونس أيضاً، ورغم انتشار مدارس الحكمة التي أنشأها الخلفاء الفاطميون في مصر، ولاسيما في القاهرة قاعدة خلافتهم منذ الخليفة المعز لدين الله، أي منذ سنة ٣٦٢هـ ، إلى أن سقطت دولتهم على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ وعودة الخلافة العباسية إليها – رغم انتشار هذه المدارس التي كانت ترعاها الدولة وتحرص على جعلها مراكز إشعاع فكرى وتكوين

ايديولوجى، فإن العقيدة الإسماعيلية في افريقية ومصر لم تستطع أن تتجاوز حلقات كبار الدعاة الذين كانت مناقشاتهم في العقيدة والمذهب على المستوى الفلسفي تكاد لا تتعدى جدران مدارس الحكمة و "دار العلوم " المخصصة لهم داخل قصر الخلافة.

وهكذا ظلت الساحة الثقافية في مصر والمغرب العربي تحت النفوذ السني الضمني أو الصريح . وبمجرد سقوط الدولة الفاطمية زال كل أثر شيعي من الساحة المصرية، الاجتماعية والفكرية. أما في بلدان المغرب العربي فلقد كان الولاء للدولة الفاطمية، بعد رحيلها إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، ولاءً سياسياً لا غير، وفي معظم الأحوال كان ولاءً اسمياً فقط. ومعلوم أن الحضور الفاطمي في المغرب العربي قد انتهى، حتى في صورته الاسمية تلك، في العقود الأولى من القرن الخامس الهجري أي قبل سقوط الدولة الفاطمية بما يقرب من قرن ونصف قرن.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير ، على : الكامل في التاريخ ، طبعة مصر ، ١٣٠٣هـ .
- ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد : الفصل فى الملل والأهواء والنحل . مكتبة خياط : بيروت [د. ت].
- ابن محمد الوليد ، على : تاج العقائد ومعدن الفوائد ، تحقيق عارف تامر . دار المشرق، بيروت ، ١٩٦٧م.
- أملى ، شيخ سيد حيدر : جامع الأسرار ومنبع الأنوار ، تحقيق : هنرى كوربان وعثمان يحيى . طهران ١٩٦٩م .
- البغدادي ، عبد القاهر : الفرق بين الفرق، تحقيق : محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا . القاهرة، ١٩٨٨م .
- جمال الدين، محمد السعيد : دولة الإسماعيلية فى إيران ، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٥م .
- حسن ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، دار إحياء التراث العربى . بيروت .
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م.
- عنان ، محمد عبدالله : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجى. القاهرة .
- غالب ، مصطفى : تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، دار الأندلس . بيروت ، ١٩٧٩م.
- الغزالى، أبو حامد : فضائح الباطنية ، تحقيق : عبدالرحمن بدوى، مؤسسة دار الكتب الثقافية . الكويت.